الموت في الشّعر الجاهلي
Death in the pre-Islamic poetry

د.عباسية بن سعيد ، جامعة أبي بكر بلقايد
كليّة الآداب واللغات الأجنبية
abbassiabensaid1@gmail.com

الملخّص:

الموت ظاهرة شغلت الفكر الإنساني عامّة والعربي خاصّة، فخوفه من الفناء المطلق وتعلّقه بالحياة ورغبته في الخلود جعله ينسج أساطير وخرافات تعليلية لهذه الحتميّة.

و العربي الجاهلي اتّبع نفس مسار تفكير الشعوب الأخرى , حيث وضع تفسيرات للروح و تشاءم من الدّهر الذي كان يعتبره سببا من أسباب الموت، كما تخيّل حياة أخرى في عالم ذي أبعاد مختلفة عن عالمه. أمّا مرحة ما قبل الإسلام فتعتبر فترة اِنعدمت فيها التفسيرات الدينيّة لسببيّة وجود الإنسان و دوره في الحياة. وهذا ما جعل العربي في حالة من الفوضى الإعتقادية و الّتي انعكست على شعره فعبّرت عن حياته الاجتماعية و الدينيّة.

الكلمات المفتاحية : الموت ، الروح ، الدهر ، الأساطير ، البعث ، الحساب و العقاب .

Abstract:

Death is a phenomenon that occupied human thought in general and the Arab one in particular. His fear of absolute perishing and his attachment to life as well as his desire to have an eternal life pushes him to knit myths to explain this finality. The Arab who lined in the pre-Islamic times followed the same ways of thinking of other peoples.

He provided explanations for the soul and felt pessimistic about times which he considered as a cause of death. Besides, he imagined the existence of a life with different dimensions from those of his own. The pre-Islamic era was a time without religions explanations for the causality of the existence of man and his role in this life .This caused the Arab man to live a disorderly state of belief which was reflected on his poetry that could be a mirror of his social and religious life.

مقدمة:

إنّ الحيرة أمام الموت و الفرار منه أمور مشتركة بين أبناء الإنسانيّة في أيّ نطاق زمني أو مكاني. وهذا ما أثّر في معتقداته ومواقفه من الكون والحياة. ولأنّه يصعب على الإنسان تقبّل فكرة الموت باعتباره نهاية مطاف الحياة، جعله هذا يبحث عن وسائل تحقّق له الخلود. و هذه الرّغبة ظهرت عند الإنسان الأوّل آدم عليه السلام لقوله تعالى في الآية 120 من سورة طه :" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخَلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى". كما عبّرت أساطير الشعوب والأمم القديمة عن محاولة الإنسان الانتصار على الموت, ولعلّ أول مدوّنة وصلتنا تذكر هذا الصراع هي أسطورة **جلجامش**[1] البابليّة و التي دُوّنت ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد حيث عكست لنا الرّغبة الإنسانيّة القويّة في تحقيق حياة أبديّة ، وإن يكن **جلجامش** قد ضيّع عشبة الخلود عند ضفّة النّهر فأخذتها منه الأفعى.

ولمّا كانت الأحوال النفسيّة الناتجة عن الحيرة والقلق لمصير المخلوقات و الفرار من الموت وطلب الخلود طموح مشترك بين أبناء الإنسانية , كان ذلك دافعا لنا إلى محاولة إبراز هذا الجانب من نفسية العربي , خاصّة في فترة تعتبر من أشدّ الفترات ظلاما و غموضا وهي فترة ما قبل الإسلام. فلم نجد ما يعبّر عن طبيعته و عقليّته إلاّ الشّعر الجاهليّ, باعتبار أنّ الشّعر له صلة عميقة بمخزون الذاكرة الجمعيّة . فالتجاور بين الأنظمة اللّغوية والأنظمة العقائديّة للحياة الجاهليّة أثّرت في هذا الشّعر, ممّا جعله مصدرا لاستنباط الأفكار الإيمانيّة والمعتقدات الأسطوريّة الّتي تميّز بها المجتمع العربي.

ومن الأسباب الّتي دفعتنا للبحث في هذا الموضوع هو اعتزازنا بالشّعر الجاهلي و الذي يعتبر رمز الفصاحة العربيّة في زمن قلّ الاهتمام به، ممّا ألهمنا للعودة إلى الأصول والبحث في ثناياه علّنا نكتشف بعض خفايا السلوك العربي خاصّة على صعيد المعتقد.

وقد ارتأينا أن نقسّم بحثنا إلى ثلاثة عناصر، فجعلنا أوّله عرض عن حتميّة الموت عند العرب , وفي ثانيه مفهوم الرّوح و الحال الّتي تؤول إليه بعد الموت .أمّا العنصر الثّالث فجاء فيه حديث عن البعث والحساب في الفكر العربي قبل البعثة النبويّة.

1-حتميّة الموت في الشّعر الجاهلي:

الخلود في رأي العربي قبل الإسلام منوط بالبقاء و عدم الفناء . وقد ثبت لديه أنّ الأحياء عامّة صائرون إلى الموت , وليس بمقدور أيّ كائن مهما كانت قوّته دفعه أو تجاهله أو الإفلات منه. انطلاقا من ذلك نجد المرقّش الأكبر[2] يقول:

فَاذْهَبْ فِدَى لَكَ ابْنَ عَمِّك لاَ يَخْلُدُ إلَّا شابةُ وَ أَدَم
كَانَ حيٌّ نَاجِيَا لَنَجا مِنْ يَوْمه المُزَلَّمُ الأَعْصَُ[3]

فالشّاعر في رثائه لابن عمّه يجد عزاء لنفسه من خلال رؤيته لزوال الأحياء جميعا بحيث لا يصمد لهذا الفناء إلاّ الجبال (شابة و أدم) . والملاحظ في غرض الرثاء أنّ الشّاعر الجاهلي يجمع في أغلب الأحيان بين صورة الثور أو الحمار الوحشي وصراعه مع الصيّاد و كلابه و بين الموت و ترصّدها للشّخص المرثيّ و نجده في نفس الوقت يذكّر نفسه بهذه الحتميّة. ولعلّنا نجد في رثاء عدي بن زيد[4] لبعض أهله أفضل تعبير عن تلك الحال التي كان يعانيها العربي اتّجاه الموت و الخلود , إذ يقول[5] :

مِنْ أُنَاسٍ كُنْتُ أَرْجُو نَفْعَهُمْ أَصْبَحُوا قَدْ خَمَدُوا تَحْتَ البَلَدْ[6]
وَ أَرَانِي جَاهِدًا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ عِلَاجِ المَال تَأْمِيلَ البُعُدْ
كَادِحًا أَحْسُبُ أَنِّي مُخْلَدُ جَاهِلُ اليَوْمَ وَتَيْسِيرِي لِغَدْ
لَا أَرَى حِصْنًا يُنَجِّي أَهْلَهُ كُلُّ حَيٍّ لِفَنَاءٍ وَ نَفَدْ

فكم من مملكة زالت و تهدّمت حصونها , وكان لهم في عاد وثمود وممالك اليمن و كندة أمثلة يذكرونها في أشعارهم تعبيرا عن سطوة الموت . من ذلك قول لبيد بن ربيعة وهو يرمي إلى ضرورة التحلّي بالعزاء والصّبر اتّعاظا بأمم خلت من قبل[7]:

وَلَقَدْ بَلَتْ إِرَمٌ وَعَادٌ كَيدَهُ وَلَقَدْ بَلَتْهُ بَعْدَ ذَاكَ ثَمُودُ
خَلُّوا ثِيَابَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ فَهُمْ بِأَفْنِيَةِ البُيُوتِ هُمُودُ

فالشّاعر العربي آمن بأنّ الموت مقدّر على الإنسان ولا بدّ من أن يأتيه في موعد محدّد له. ولعلّنا لا نجد خيرا من عمرو بن كلثوم في التعبير عن هذا الاعتقاد , حيث يقول[8]:

وأَنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا المَنَايَا مُقَدَّرَةٌ لَنَا وَمُقَدَّرِينَا

ويذهب جواد علي إلى أنّ القدر والمقدّر والمقدور والأقدار والقضاء من الألفاظ القديمة الّتي كانت تؤدّي معناها وهذا يعني أنّ تلك الكلمات ليست من الألفاظ الّتي نبعت في الإسلام[9]. و من الشّعراء الّذين أوردوا القدر بهذا المعنى أنس بن مُدْرِك الخَثْعميّ بقوله[10] :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي كَرِيمٍ قَدْ فُجِعْتُ بِهِ ثُمَّ بَقِيتُ كَأَنِّي بَعْدَهُ حَجَرُ
لاَ أَسْتَكِينُ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ وَلَا أَغْضِي عَلَى الأَمْرِ يَأْتِي دُونَهُ القَدَرُ

فالشّاعر هنا متجلّد اِتّجاه ما قُدّر عليه من محن كانت قضاء مكتوبا. لكنّ هذه الفكرة تؤولنا إلى التساؤل : عن ماهية القوّة الّتي قدّرت على الإنسان الموت في رأي العربي ؟

فمن خلال دراستنا لبعض دواوين الشّعر الجاهلي وجدنا أنّ العربي كان يخشى الموت والّذي يراه في تقلّبات بيئته الصحراوية القاسية والحروب الدمويّة المستمرّة الّتي تحرمه من الشّعور بالأمن و الاستقرار ، في ظلّ فترة شحّت التّفسيرات الدّينيّة لهذه الظّاهرة ممّا دفعه لإرجاع القدر إلى الدّهر الّذي يعبث بالإنسان . فقوله تعالى في سورة الجاثية : "وَ قَالُوا مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ" يؤكّد أنّ العرب اعتقدوا بأنّ الدّهر هو السّبب في هلاكهم , فاشتكوا منه و وصفوه بالمكر والدّهاء . وقد شخّصه الشّعراء و بثّوا فيه الرّوح و الحركة وجعلوه كائنا يتّصف بالخداع و تسديد السّهام الصّائبة , كتصوير عدي بن زيد للدّهر المختال في قوله[11]:

فَوَّقَ الدَّهْرُ إِلَيْنَا نَبْلَهُ   عَلَلًا يَقْصِدُنا بَعْدَ نَهَلْ

كما رأى عبد اللّه بن الزِّبَعرى أنّ مصائب الدّهر وحوادثها لا تدع إنسانا إلّا تلاعبت به , ونزعت عنه متعة العيش لتودي به إلى الموت و الفناء وكأنّ للدّهر بنات ميزتهنّ اللّعب بالأشخاص كلعبهنّ بالدّمى , حيث قال:[12]

كلُّ عَيْشٍ وَ نَعِيمٍ زَائِلُ   وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلِ

وهاهو ذا اِمرؤ القيس يعطي للدّهر صورة مخيفة مشبّها إيّاها بالغول ، ففي الميثولوجيا العربية أهمّ صفة لهذا الكائن الخرافي هي التلوّن وعدم الوفاء . و الشّاعر هنا أسقط صورة هذا الوحش الّذي يأكل ملوك كندة على الموت الّتي خطفتهم على حين غرّة , فقال[13]:

أَلَمْ يُخْبِرْكَ أَنَّ الدَّهْرَ غُولٌ   خَتُورُ العَهْدِ يَلْتَقِمُ الرِّجَالَا
أَزَالَ عَنْ المَصَانِعِ ذَا رِيَاشٍ   وَقَدْ مَلَكَ السُّهُولَ وَالجِبَالاَ[14]

و كان بعض العرب يسبّون الدّهر حين يتذمرّون من نوازله حتّى لُقّب أحد الشعراء بشاتم الدّهر العبدي . فشيوع هذه الظّاهرة حمل الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم على النّهي عن ذلك فقد جاء في الحديث "لا تسبّوا الدّهر فإنّ اللّه هو الدّهر"[15].

ولمّا كان الموت حدا فاصلا بين تمتّع الفرد بعيشه والحياة مجال رحب لتحقيق المتع , دفع هذا الشعراء إلى الاعتراف برغبتهم في الأخذ من متع الدّنيا قبل أن يخدعهم الدّهر فيفنيهم , من ذلك ما ذكره طرفة بن العبد في قوله[16]:

أَلَا أَيُّ هَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى   وَأَنْ أَشْهَدَ اللذَّاتَ ,هَلْ أَنْتَ مُخْلدِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيع دَفْعَ مَنِيَّتِي   فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

ففلسفة طرفة بن العبد تتجلّى في اقتناعه بأنّ الحياة فانية . ولمّا كان الأمر كذلك فعليه أن يتزوّد منها و يغترف من لذّاتها ما استطاع . كما نجده ينعي على الّذين ينهون ويلومونه على تمتّعه بالشّرب , ويذكّر نفسه بأن يكون شجاعا أمام الموت ما دام أحد لا يستطيع النّجاة منه .

و رغم تأكّد العربي بأنّ الموت سوف يلاقيه يوما ما , إلّا أنّنا نجده في كثير من المرّات يحاول إيجاد وسيلة لإبعاده قدر ما يستطيع . ومن أهمّ هذه الطرق استعان الجاهليّون بالرّقى والتعاويذ الّتي يصنعها الكهّان وذلك لأنّهم اعتقدوا أنّها تدفع عنهم المنيّة . ففي نظرهم أنّ من أسباب الموت تأثير الأرواح الشريرة والّتي في طبعها إلحاق الضرر والأذى بالإنسان . حيث زعموا أنّ الطاعون من فعل الجنّ ممّا دفعهم إلى التّعشير لاتّقاء المرض فنهقوا كما ينهق الحمار , وفي ذلك قال الأسدي للحارث الغسّاني[17] :

لَعَمْرِكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أُبَيٍّ   رِمَاحَ بَنِي مُقَيَّدَةِ الحِمَارِ
وَ لَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى أُبَيٍّ   رِمَاحَ الجِنِّ أَوْ إِيَاكَ حَارِ

وكانت العرب إذا طالت علّة المريض ظنّوا أنّ به مسّا من الجنّ ، فقدّموا لهذه الأرواح الخفية الهدايا لاسترضاءها و اتّقاء شرّه , كما عقدوا التمائم و وضعوا الخرز كالمعاذة .

ومنه قول اِمرئ القيس[18]:

مُرَسَّعَةٌ بَيْنَ أَرْسَاغِهِ بِهِ عَسَمٌ يَبْتَغِي أَرْنَبَا

لِيَجْعَلَ فِي رِجْلِهِ كَعْبَهَا حِذَارَ المَنِيَّةِ أَنْ يَعْطَبَا

فكان يُشدّ على يدي الصبيّ أو رجله كعب أرنب دفعا لعين الشّياطين , حيث اعتقدت العرب أنّ الجنّ تخشى الأرانب لأنّها تحيض , مثل ذلك فعلوا مع اللّديغ فعلّقوا عليه خرق الحيض . فالأرواح الشرّيرة - حسب رأيهم - تعاف النجاسة , ممّا دفع شاعرا عربيا مجهولا ذكره الأصفهاني إلى نفي هذا المعتقد لأنّ رقى الكاهن لا تنفعه، فالمنية تهتدي إليه أينما حلّ إذ يقول الشاعر[19]:

وَلَوْ كَانَ عِنْدِي حَازِيَان وَ كَاهِنُ وَعَلَّقَ أَنْجَاسًا عَلَى المُنْجَسِ[20]

إِذًا لَأَتَتْنِي حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتِي يَخِبُ بِهَا هَادِ إِلَى مَعرَسِ

و الظّاهر أنّ عددا غير قليل من الشعراء الجاهليين لا نجدهم يذكرون أوثانهم الّتي كانوا يعبدون في غرض الرثاء , فلم يستعطفوهم ولم يطلبوا عونهم لإبعاد الموت عنهم . قد يقول قائل أنّ السّبب هو تعاليم الدين الإسلامي الّتي نهت عن كلّ ما له علاقة بالديانة الوثنيّة . لكنّ للإجابة على ذلك نقول: أنّنا ومن خلال دراستنا لنماذج كثيرة من الشّعر الجاهلي وجدنا أنّ هذا الشّعر أمدّنا بأخبار كثيرة عن الحياة الدّينيّة في فترة ما قبل الإسلام. و رغم وضعنا في الحسبان أنّ الشعر الجاهلي ميزته الإشارة والإيحاء إلاّ أنّنا استطعنا أن نحصي عددا من الأصنام و الأوثان الّتي عبدتها مختلف القبائل العربيّة بالإضافة لاكتشافنا لبعض معتقدات وديانات كانت سائدة في المجتمع العربي و هذا دليل على أنّ عددا من النصوص لم تعبث بها يد الدّهر ، ممّا يدحض قول القائلين بأنّ الشعر الجاهلي لا يمثّل حياة العرب وعقليتهم .

2-الرّوح و مآلها في فكر الجاهليين: للعرب نظرة إلى الرّوح حسب إيماناتهم و معتقداتهم , يلخّصها المسعودي فيقول : "كانت للعرب مذاهب في الجاهليّة في النّفوس , وآراء ينازعون في كيفيّاتها , فمنهم من زعم أنّ النّفس هي الدم لا غير , وأنّ الرّوح الهواء الّذي في باطن جسم المرء منه نفسه , ولذلك سمّوا المرأة منه نفساء , لما يخرج منها من الدم . ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط في الماء : هل ينجسه أم لا؟ وقد قال تأبّط شرّا لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله كيف كانت قصّته ؟ فقال: ألجمته غضبا فسالت نفسه سكبا ."[21]

وسُمّي الدم نفسا لأنّ النّفس تخرج بخروجه , في ذلك يقول السموأل[22]:

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظّبَاتِ نُفُوسُنَا وَ لَيْسَ عَلَى غَيْرِ الظّبَــاتِ تَسِيلُ

أمّا عبيد بن الأبرص فيشبّه أرواح النّاس بعد الموت بالرّياح في قوله[23]:

هَلْ نَحْنُ إِلَّا كَأَجْسَادٍ تَمُرُّ بِهَا تَحْتَ التّرابِ وَأَرْوَاح كَأَرْوَاحِ

وقصد الشاعر أنّ أرواح النّاس بعد الموت هي أشبه شيء بالرّياح ، حيث ينتهي بها الأمر إلى التراب و يصيب الجسد من التغيير ما أصاب الرّوح . غير أنّنا نجد امرئ القيس يتساءل في بيت شعري له عن مصير الرّوح بعد أن تفارق الجسد فيقول[24]:

لَيْتَ شِعْرِي , وَلَيْتُ نَبْوَةٌ أَيْنَ صَارَ الرُّوحُ إِذْ بَانَ الجَسَدُ

ومن معتقدات العرب أنّ الرّوح بعد الموت تصبح في شكل طائر شبيه بالبومة يطلق عليه اسم **الهام** و **الصـدي** وهو ينبعث من رأس الميت يطلب ثأره , وينادي اللّيل كلّه :اسقوني .

ومنه قول ذي الأصبع العدواني[25]:

يَا عَمْرُو إِلَّا تَدَعْ شَتْمِي وَ مَنْقَصَتِي أَضْرِبْكَ حَتَّى تَقُولَ الهَامَةُ اسْقُونِي

و يبدو أنّ الّذي ساعد على هذا الاعتقاد وجود طيور كالبوم والغربان تألف المقابر والأماكن المقفرة , إضافة إلى تشاؤمهم من أصواتها ؛ فصياح الهام جعل العرب ينسجون خرافة طلب السقيا من دم القاتل . فالفكرة الضمنية في هذه الحكاية و الهدف الذي صيغت من أجله هو الدّعوة إلى طلب الثأر و هذا كان أمرا شائعا في الجاهلية . حيث

تصوّروا أنّهم يُرضون به الميّت و يكفّون شرّه من ناحية ويثبتون به قوّتهم لخصومهم من ناحية أخرى .إلّا أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم نهى عن الاعتقاد في الهام بقوله : "لا عدوى و لا طيرة ولا هامة ولا صفر".

كما كان للمرأة دور مهمّ في التّحريض على الأخذ بالثّأر كقول هند بنت حذيفة في رثاء أخيها كزر[26]:

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْوُوا الهَامَ غَارَةً يُحَدِّثُ عَنْهَا وَارِدٌ بَعْدَ صَادِرْ

وَ تَرْمُوا عُقَيْلًا بِالَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا بَقاءٌ فَكُونُوا كَالإِمَاءِ العَوَاهِرْ

ولكي ترقى المشاركة القوميّة في الحدث كانت النسوة تقوم بطقوس معروفة عند العرب واستمرّت إلى مدّة زمنيّة قبل أن يحرّمها الإسلام , وهي ارتداءهنّ للأسود من الثّياب وارتفاع الصّراخ والعويل كما يعمدن إلى حلق الشعور وشقّ الجيوب وتعداد محاسن الميّت . ويمكننا تصوّر شناعة و هول المنظر و أثره في دفع الرّجال للأخذ بثأر المقتول. إلّا أننا نجد لبيد بن ربيعة يوصي أهله بأن لا يتّبعن طقوس العرب قد يكون ذلك رحمة بهم و هو يوصيهم بالاكتفاء بالبكاء و الحزن عليه و ذكر ما فيه من صفات , فيقول[27]:

فَقُوما فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمْتُمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرَ

إِلَى الحَوْلِ ثَم أُسْمُ السَّلَامَ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اِعْتَذَر

3- البعث والحساب عند العرب قبل الإسلام:

إذا كان الشّعراء الجاهليّون قد تحدّثوا عن استسلامهم للموت وعن تحولّهم إلى هام إلّا أنّهم لم يجتمعوا على حقيقة بعث الأجساد بعد الموت . فأكثر الوثنيين أنكر البعث مع إقرارهم بالخالق , حيث قالوا : -كما جاء في القرآن الكريم- **" أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17)"[28].**

وثمّة آيات كثيرة يعرض فيها القرآن الكريم لأقوال المشركين وجدالهم للرّسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) حول البعث والنّشور والثّواب والعقاب[29]. وهذا دليل على أنّ العرب عرفوا البعث إلّا أنّهم اعترفوا بأنّه ذُكر في أساطير الأوّلين [30], وهم يعدّونها من قبل الخرافات الّتي لم تُثبت صحّتها لأنّ آباءهم قد وُعدوا بذلك من قبل .ومن بين الشّعراء الّذين أنكروا البعث عبد اللّه بن الزبعرى حيث يبيّن في بيت له أنّ الحديث عنه ضرب من الوهم , إذ يقول[31]:

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرٌ حَدِيثُ خُرَافَةَ يَا أُمَّ عَمْرُو

و الاعتقاد بالبعث ظاهرة انتشرت عند عدد من الشّعوب و الحضارات المدوّنة تاريخيا

كالسومريين وقدماء المصريين و غيرهم حيث أنّهم كانوا على شيء من اليقين بمواصلة الرّوح للحياة , وخير دليل ملموس يمكن الاستدلال به على ذلك هو تزويد الأحياء للميّت لدى دفنه بما يحتاج إليه من طعام وماء وأدوات و حتّى الزّوجة و العبيد يُدفنون معه لينعم بالعيش معهم في العالم الآخر،مع اختلاف الأفكار بحسب المعتقدات من حضارة إلى أخرى.

وربّما رأى العربي أنّ الحياة الثانية هي شبيهة بالحياة الدّنيا , فهو في حاجة إلى مستلزمات منها الرّاحلة الّتي تُبعث معه لتساعده على النّفير وقد أُطلق عليها اسم البليّة.فإذا مات الرّجل عمدوا إلى راحلته فوقفوها على قبره معكوسة رأسها على يدها ملفوفة الرأس في وليّتها , فلا تُعلف و لا تُسقى حتّى تموت ليركبها إذا خرج من قبره , و كانوا يقولون : إن لم يُفعل هذا حُشر على رجليه.

فعدد غير قليل من شعراء الجاهليّة من ذكروا البعث و الحشر إلّا أنّهم لم يتوسّعوا في توضيح صورة ذلك العالم الآخر , بل اقتصر بعضهم على ذكر أنّهم سيُبعثون وبالتّالي سيكونون في حاجة إلى ناقة يرتحلون عليها , إلّا أنّنا لم نجد أخبارا في شعرهم عن تصوّرهم لهذا المكان الّذي سيذهبون إليه .

ومن ذلك قول عمرو بن زيد التميمي يوصي ابنه عند موته[32] :

أَبُنَيَّ زَوِّدْنِي إِذَا فَارَقْتَنِي فِي القَبْرِ رَاحِلَةً بِرَحْلٍ فَاتِرِ
لِلْبَعْثِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ :اظْعَنُوا مُسْتَوْثَقِينَ مَعًا لِحَشْرِ الحَاشِرِ
مَنْ لَا يُوَافِيهِ عَلَى عَثَرَاتِهِ فَالخَلْقُ بَيْنَ مُدْفَعٍ وَ عَاثِرِ

و لعلّ أبرز صورة قُدّمت للحشر تلك الّتي وردت في شعر يُنسب لقسّ بن ساعدة الإيادي , يبيّن فيها قيام النّاس من قبورهم إثر صيحة عظيمة وهم بين عار و بين مرتد ثيابا جديدة أو مرتد ثيابا بالية , ربّما في ذلك إشارة إلى زمن موتهم .

إذ يقول[33]:

يَا بَاكِيَ المَوْتِ وَ الأَمْوَاتُ فِي جَدَثٍ عَلَيْهِم مِنْ بَقَايَا بَزِّهِم خِرَقُ
دَعْهُمْ, فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ كَمَا يُنَبَّهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
حَتَّى يَجِيئُوا بِحَالٍ غَيْرَ حَالِهِمْ خَلْقٌ مَضَى ثُمَّ هَذَا بَعْدَ ذَا خُلِقُوا
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَ مِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ مِنْهَا الجَدِيدُ, وَمِنْهَا الأَزْرَقُ الخَلَقُ

ثمّ إنّ الايمان بالحشر يعني بالضرورة الايمان بالحساب إذ جاء في شعر ينسب لأميّة بن أبي الصّلت[34] :

وَ لَا يَوْمَ الحِسَابِ وَ كَانَ يَوْمًا عَبُوسًا فِي الشَّدَائِدِ قَمْطَرِيرَا*

كما آمن زهير بن أبي سلمى بأنّ الإنسان مبعوث يجازيه اللّه على أفعاله إن خيرا فخير و إن شرّا فشر ّ وقد يُعاقب في الدّنيا . و في ذكره للفظة الجلالة دلالة على إيمان داخلي مترسّب من ديانة توحيديّة قديمة والغالب أنّها الحنيفيّة . حيث قال[35]:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللّهَ مَا فِي صُدُورِكُم لِيَخْفَى , وَمَهْمَا يُكْتَم اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرِ لِيَوْمِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقِ

إلّا أنّنا نجد إشارات إلى ما يأتي بعد الحساب من جنّة ونار في بيت لورقة بن نوفل, يتحدّث فيه عن زيد بن عمرو بن نفيل والذي كان في الجاهليّة يذكّر النّاس بدين إبراهيم , إذ يقول[36] :

رَشِدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابن عَمْرُو وَ إِنَّمَا تَجَنَّبْتَ تَنُّورًا مِنَ النَّارِ حَامِيًا **

فورقة بن نوفل يقول في رثائه لزيد بن عمرو : لقد اهتديت في حياتك وبذلك بعدت عن نار جهنم المحترقة ووقيت جسدك منها ، وفي ذلك دلالة على بقاء آثار من ديانات التوحيد في المجتمع العربي قبل الإسلام، فالشعر الجاهلي كان له الدور الكبير في إظهار وتأكيد هذه الحقيقة التاريخية .

ونخلص إلى أنّ فلسفة الإنسان العربي انتهت إلى حتميّة الموت و إلى عجزه عن دفعها فراح يفكر في حياة أخرى تستمر فيها الروح في مستوى آخر للوجود . فأنشأ شعائر وطقوس تمثل وسيلة لإرضاء روحي كما تسهّل له المرور إلى العالم الآخر.

و أغلب الشّعراء الّذين تحدّثوا عن البعث والحساب إلّا و في قلوبهم إيمان باللّه و بقيّة من الأديان السماويّة خاصّة الحنيفيّة أو المسيحيّة , و مع قدم العهد بها رسخت هذه المعتقدات في الذّاكرة الجمعيّة . حيث ظلّت معروفة بصورة مشوّشة ,والدّليل على ذلك اعتناءهم بالميّت من غسل وتكفين رغم وثنيّتهم . إلاّ أنّ الفئة الغالبة في المجتمع العربي قبل الإسلام نفت وجود حياة أخرى بعد الموت و اعتبرت الخوض فيه من الأساطير ، والسبب في ذلك أن المجتمع العربي كان يعيش فراغا روحيا راجع إلى افتقاره إلى عقيدة دينيّة تجعل لحياته معنى وهدفا وتفسّر له لغز الموت وما يأتي بعده.

الإحالات :

1-توصل إلى اكتشافها عالم إنجليزي في مكتبة آشور بانيبال(آخر ملوك آشور 688 -626 ق.م) منقوشة بكتابة مسمارية علـــى ألواح طينية .

2- المفضل الضبي : المفضليات تحقيق عبد السلام هارون و أحمد محمد شاكر، دار المعارف 1943 ،ط 6 ص 238

3- المزلم: الوعل اللطيف الخلق ،و الأعصم :الذي في يديه بياض .

4- عدي بن زيد بن حماد ويلقب بالعبادي نسبة إلى العباد وهم نصارى الحيرة من العرب ، كان نصرانيا إلّا أنّه لم يمتنـــع عـــن مشاركة جمهور العرب في تعظيم مكة واحترامه الكعبة فقسمه بها وبالصليب خير دليل على ذاك إذ يقول :

سَرَى الأَعْدَاءُ لَا يَأْلُونَ شَرًا عَلَيْكَ وَ رَبُّ مَكَةَ وَ الصَلِيب

5- عدي بن زيد : الديوان حققه و جمعه محمد جبار المعيبد ، وزارة الثقافة و الإرشاد بغداد ،1965، ص43 .

6- . البلد :المقبرة أو القبر نفسه.

7-. لبيد بن ربيعة : الديوان ، دار صادر بيروت ، ص46 .

8-. التبريزي : شرح القصائد العشر ص 324 ، و الزوزني : شرح المعلقات السبع ص 146 .

9- انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين بيروت ط 1، 1970 ،ج 6 ص 135.

10- نوادر المخطوطات أسماء المغتالين ، تحقيق عبد السلام هارون ،شركة و مكتبة مصطفى البابي الحلي مصدر ط2 ، 1973 ، ج2 ص 277 .

11- عدي بن زيد : الديوان ص 99.

12- . ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني 1943 ،ج 1 ص 237.

13- امرؤ القيس الكندي : الديوان ، شرحه عبد الرحمان المصطاوي ، دار المعرفة بيروت ، 2004 ، ص 146.

14- المصانع : الحصون ، وذو رياش : الرائش من قيس من ملوك اليمن .

15- البخاري : الصحيح ج 4.

16- طرفة بن العبد : الديوان شرحه مجدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط3 ،2002 ،ص 25.

17- أبو عثمان بن بحر الجاحظ : كتاب الحيوان ، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود ، منشورات محمد علي بيضـــون دار الكتب العلمية بيروت ، ط1 ،1998 ،ج6 ص219 .

18- امرؤ القيس : الديوان ص 79.

19- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ط3 ،2008، ج 15 ص79.

20- . الناجس و المنجس : الداء الّذي لا يبرأ ، والناجس : شديد وخبيث ، كقول أبي ذؤيب الهذلي :

شَانِئه طُولُ الضَّرَاعَةِ مِنْهُمُ وَ دَاءٌ قَدْ أَعْيَا بِالأَطِبَّةِ نَاجِسُ

الضراعة : الخضوع .

21- أبو الحسن المسعودي :مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيـــروت ، ط5 1973, ج2 ص 153 .

22- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر بيروت ، ج6 ص 233 مادة نفس .

23- عبيد من الأبرص : الديوان شرحه أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي بيروت ط1 ، 1994 ، ص51 .

24- امرؤ القيس : الديوان ص 217.

25- ذو الإصبع العدواني : الديوان ص 62 و في لسان العرب لابن منظور ج 12 ص624

26- أبو الفضل بن أبي طاهر طيغور (ت280ه) :بلاغات النساء ،دار الحداثة بيروت ط1 ،1987 ،ص 271 .

27- لبيد بن ربيعة :الديوان ص 79.

28- سورة الصافات الآية 16-17.

29- سورة يس الآية 78 ،السجدة الآية 10 ،الأنعام الآية 29 , الرعد الآية 5 ،النحل الآية 38.

30- سورة النمل الآية 68 .

31- محمود شكري الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، شرحه وصححه محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية بيروت ،1314ه ، ج2 ص198.

32- المصدر نفسه ج2 ص 309 .

وخرافة رجل من بني عذرة استهوته الجنّ فلمّا خلّت عنه رجع إلى قومه وجعل يحدّثهم بالأعاجيب الّتي رآها فكذّبوه ، فكانت العرب إذا سمعت حديثا لا أصل له قالت حديث خرافة. ثمّ كثر هذا في كلامهم حتّى قيل للأباطيل و الترهات خرافات

33- ابن حزم علي بن سعيد : الفصل في الملل و الأهواء و النحل ،وبهامشه الملل و النحل للإمام أبي الفتح الشهرستاني دار الفكر ،ج 2 ص242.

34- أمية بن أبي الصّلت : الديوان جمعه و حققه وشرحه د. سجيع جميل الجبيلي ، دار صادر بيروت ،ط1 ،1998 ، ص68.

* - القمطرير :اليوم الشديد

35- زهير بن أبي سلمى : الديوان ، شرحه حمدو طماس ، دار المعرفة بيروت ، 2005، ص68.

36- . ورقة بن نوفل مبشر الرسول صلى الله عليه وسلم ، جمع وتحقيق ودراسة غسّان عزيز حسين ، منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ،ط1 ،2002 ,ص 151.

**. رشدت أي بالغت في الرشد ، و أراد بتنور من النار : نار جهنم حامية .